

سور رابع في

الوحدة الإسلامية

للأستاذ حسين مروة

لنكاد نلص اليوم في مظاهر الحركة الإصلاحية القائمة في ديار الإسلام وأمة القرآن الكريم - اتجاهها جديداً يغتبط به كل مسلم يستشعر في نفسه الإيمان الحق، ومظهرها مباركا يرتاح إليه كل موحد يحمل في صدره عاطفة الخير الصريح، وإنا - إلى اغتباطنا بهذا الاتجاه - لنزداد طمأنينة إليه إذ تتلس بين عوامله وأسبابه عامل النضج الفكري وفهم الحقائق المستوحاة من ملايسات الحياة وروحية الدين الإسلامي الخفيف. وإنا لنذهب في طمأنينتنا واغتباطنا هذين مذهبا أبعد دى، إذ نشهد بين العاملين على هذا الاتجاه طائفة رجال الدين التي يرى كثير من المشتغلين في هذا الحقل أنها السبب الأول في إخفاق الحركات الإصلاحية التي نشأت في الأعوام المتأخرة لتوحيد كلمة الأمة الإسلامية وجمع رأيها الشنت ورتق مائق التاريخ من مجدها السى وعزها الرفيع.

وفي الحق أن طائفة رجال الدين هذه كانت في عصور التاريخ الإسلامي الأولى هي العنصر الصحيح الذي عمل للإسلام أكثر مما عملته العناصر الأخرى، إذ بيننا كانت هذه العناصر تحمل المعاول لهدم صروح الوحدة الإسلامية الشاخنة - كان علماء الدين يجلسون إلى القرآن والحديث الشريفين يستوحونهما حقائق الدين، ويستمدون بنورهما المبين إلى حل المشكلات وتوضيح الغامضات، يجتمعون على ذلك فيما بينهم وإن باعدت المذاهب بين صفوفهم، ويتواصلون تواصل الأرحام وإن حاولت أهواء السياسة أن تنثر جماعاتهم نثراً وأن تستغل بساطتهم البريئة استغلالاً، وأن تستثير حفاظهم الدينية لتأييد أغراضها، فتزاهم - على هذا كله بنصرفون عما حولهم من شؤون إلى دراسة، أو تدريس، أو تأليف، أو مناظرة علمية مهذبة الحواشي طاهرة المقاصد موطاة الأكتاف بالسباحة الرجة والتساهل العذب وأدب البحث النزيه. وإذا كنت ترى في مخلفات هذه الطائفة في عصورها تلك من المؤلفات والدراسات ما لا يدل على شيء من هذا الذى نقول - فأنما هو النادر الذى لا يصح القياس به، أو هو ما ألحت عليه السياسة بأسبابها ونوازعها الآثيمة. وهكذا كانت السياسة تلحف بالتقصص من أطراف الوحدة، وتلج في تبديد الشمل، وتجهد في قضيع الخلق العلى السمع، واستئصال هذه البقية الكريمة من تراث العصر الأول للإسلام - حتى انتال رجال الدين إلى السياسة، وانهاى العلماء على الدنيا، وكان ما كان من هذه الطرائق المبعثرة، وهذه الأهواء المتدافعة، وهذه الدنيا الإسلامية المليئة بالأحداث الجسام والنوازل المروعة الفادحة

وعفا الله عن رجال الدين هؤلاء ومن خلف من بعدهم إلى يوم المسلمين هذا، فلقد سايروا أهل المطامع، وكانوا معهم إلبا على الدين من حيث لا يشعرون، وكانوا لهم عوناً على الأثم من حيث هم غافلون، ونحن لا نشك في أن أصحاب الراى القائل بأن علماء الدين قد عرقلوا سير الإصلاح في الإسلام - على شيء من الحق، وإن لم يكونوا على الحق جميعه فيما نرى، لأن تخلف هؤلاء عن قافلة رجال الإصلاح الذين قطعوا شوطاً في هذا المضمار - ليس هو السبب - كما يرون - في إخفاق الحركات الإصلاحية التي قامت في هذه الأمة إلى اليوم، لأننا لا نعتقد أن سلطة رجال د الاكليروس - الإسلامية تتناول هذا المدى من التأثير في سير الأمور العامة في دنيا المسلمين، ولعلنا لا نزيغ عن الحق إذا قلنا لأصحاب هذا الراى إن السبب الأول في فشل المصلحين يرجع إلى عاملين اثنين: أحدهما - كاتبوا التاريخ الإسلامي أنفسهم الذين أمعنوا كثيراً - علم الله - في تملق السياسة ومجاراة أهواء النفوس من أى حزب كان هؤلاء ومن أى شيعة ولون، جعلوا تاريخنا مثارا للعزيزات وموقظا للشرعات كلما شاء الزمان أى يبدلنا بشرنا خيراً، وبفقرتنا اجتماعاً، وشر البلية في هؤلاء أننا مرغون على قراءتهم فالحيلة إذن؟ ترى هل يعتمد القارئون على فكرة الإصلاح إلى ما كتب المؤرخون عن عصور القلق الإسلامي فيقطعون السنتهم فيما يتحدثون به إلينا من فضول الاحاديث؟

وأما العامل الثانى فليس في قراء الرسالة، الكريمة - كما نعتقد - من يجهله، أو ليس هو الغرب، الغازى... المظفر...، ويعلم القراء ما ورام هذا من شجون الحديث وشؤونه الرائعات.

هذان ما نعتقد أنهما السبب الأول في تمزيق شمل المسلمين. وإذا كان لرجال الدين من أثر بعد هذا، فذلك هو استسلامهم إلى هذين العاملين استسلاماً ساذجاً أخرج، ولا نقول عنه إلا ذلك...

ونعود الآن لنقول ثانية: إن هذا الاتجاه الحادث في دقة الحركة الإصلاحية، يزيد في اطمئناننا إليه أن بين عوامله وأسبابه فهم أول الشأن من طوائف المسلمين حقائق الحياة المحدقة بهم وأسرار الروحية الإسلامية السمحاء، وأن في صف العاملين عليه طائفة رجال الدين، ورجال الدين هؤلاء المساهمون في هذا الاتجاه ليسوا من الأزهر الشريف وحده، وليسوا من التجف المقدس وحده، ولكن المعهدين الشقيقين كليهما يمدان الفكرة الجليلة المنشودة: «الوحدة الإسلامية» بروح منهما وبسبب من عندهما بلغى الأثر، كرمي العنصر، طيبي المنبت، وها هي دار الكنانة، العزبة، زعيمة هذه الفكرة المثلى وحاملة المشعل المقدس اليوم قد شهدت منذ أيام عالما جليلا من علماء التجف يحاضر في دار جمعية الشبان المسلمين في موضوع «الوحدة الإسلامية» بروح من التسامح جليل البادرة، ويجتمع إلى عظماء البلد الإسلامي الكريم يحادثهما حول هذا الشأن فيلقى في رجال العرش المؤثر الرفيع كل العطف، ويشهد في أوساط الأزهر العظيم

الطائفتين في أصول العقائد حقيقي، وليس هو - كما قالوا - ظاهري قشري يستطيع - تصفيته، في اجتماع أو مؤتمر أو ما يشبه هذا. ولنقل كذلك - بمثل هذه الصراحة - : أن من العسير، بل من المتعذر، أن نحمل أية من هذه الطوائف على الترحيح عن مبدأ واحد من مبادئها أو أصل واحد من أصولها - قيد شعرة - بعد أن أصبحت هذه المبادئ والأصول عقيدة في العقائد - ولا نظن السادة أصحاب هذا الرأي يجهلون أن العقيدة جزء من كيان المرء لا ينفك عنه ما دام كياناً ينسب إليه ويتميز به، ولفظنا في غنى عن التبسط بهذه الناحية، وفي مباحث العلوم النفسية والاجتماعية وفي منطق الواقع نفسه ما يغني عن التبسط والتدليل ولنفرض - جدلاً - أن اجتمع نخبة من علماء كل طائفة، وتجرد هؤلاء عن اعتبارات المذهب، وموجبات العقيدة، وبحوث الأمر بحثاً علمياً صريحاً مستهدين بروح الاسلام الأعلى. ومبدأ القرآن الأول، ثم أقرروا جملة من المبادئ والأصول قد تكون مزيجاً من مذاهب شتى وقد تميل إلى مذهب دون مذهب - لنفرض هذا كله، ولنجعلها يمكن من الاعتبار الصحيح، ولكن من يضمن لنا هذه الدماء أن تنازل عن عقائدها لقاء ما يقول لها العلماء، هكذا قضى البحث وقواعد العلم، وهكذا نشاء مصلحة الاسلام. أو أن تقبل هذا المذهب الجديد، بطمأنينة ورضا وانتفاع ومن يضمن لنا كذلك هذا التاريخ الأروع أن يوقظ الثغرات من جديد فنستهدف مشكلة جديدة ونضيف إلى هذه المجموعة الضخمة، من المذاهب مذهباً جديداً، أو قل : عاملاً جديداً على صدق الصف وخلق القوضى التي نحاول أن نبنيها من الوجود ؟

لا . لقد جاء الأستاذ الصعدي - حفظه الله - بالحق إذ تحاشينا هذا المنحى في سبيل الإصلاح وجمع الشمل . ولقد نحونا مثل هذا كذلك في مقالات نشرتها جريدة الهاتف، النجفية ناشدنا فيها هيئة العلماء العليا في التجف أن يعتبروا هذه الخلافات في أصول العقائد بين المذاهب الاسلامية، كما يعتبرون هذه الخلافات في الفروع بين مجتهدي المذهب الواحد، وأن تمد مدرسة التجف بدعاً إلى شقيقتها الكبرى مدرسة الأزهر، وأن يتبادل الممهدان الكريمان البعوث العلمية ويوحدا مناهج التعلم فيها وأن يشتركا في الرأي كلما حدث في الاسلام حدث من إصلاح أو تثقيف، أو تأليف، أو تأسيس الخ .

هذه هي الخطة المثلى التي نرجو أن يعتبرها المصلحون من علماء الطائفتين قاعدة لأعمالهم في سبيل الوحدة الاسلامية المنشودة . ولنا نرجو أن يكون لنا في هذا الاتجاه الاصلاحى الجديد - سبب أى سبب في تحقيق هذه الامنية الحية .

وأنا أرجو - في ختام كلمتي - أن أحقق أمنية نلتج بالصدر في أن أشد الرحال في اليوم القريب إن شاء الله إلى الأزهر العظيم رجاء أن نشق الطريق إلى تواصل الأرحام بين الممهدين الشقيين، وتحقيقاً لمقترح الأستاذ لصعدي الكريم، والله ولي الأمر ؟

مصطفى صرور

أبلغ المثل على نضج الفكرة، وبأنس من علية البلد وزعمائه الأبرار ومن حملة العلم والقلم ورجال الفكر فيه - ألمع الدلائل على قرب اليوم السعيد، إذ يصبح المسلمون إخواناً كأنهم البنيان المرصوص، تظلم جميعاً راية التوحيد العليا .

ولكننا - ونحن نعرض لهذا كله - نرى من واجبا أن نقول كلمة في مرحلة ثانية للموضوع، وهي التي أردناها أول ما أردنا أن نكتب في هذا الباب، ذلك أن للموضوع مرحلتين : أولاهما - حاجة الأمة الاسلامية إلى الوحدة الشاملة الكبرى، وهذه قد فرغ الباحثون من التدليل عليها، ووضعها في ميزانها الصحيح، وفرغ كذلك المصلحون من عقد الضمان على الايمان بها وجعلها مثلاً أسمي تستهدف النفوس، وتستهن في سبيله الجهود . والمرحلة الثانية هي : قضية العوامل والأسباب الأقرب أثراً وأعظم فعلاً في تحقيق هذه الامنية الغالية والمثل الرفيع . هذه المرحلة الثانية قال الكاتبون والمصلحون فيها ما شاؤوا، ولقد طلع على العالم الاسلامي منذ أعوام بعيدة أو قريبة، رأى بهذا الشأن عرفه السوريون أكثر من غيرهم، إذ نشأ - أول ما نشأ - في ديارهم، ويقول أصحاب هذا الرأي إن الخلافات المذهبية - ولا سيما بين طائفتي السنة والشيعة - هي مصدر الفرقة، وهي مصدر البلاء والشقاء، وإذن فلننضم إلى قلع هذا الوباء من أصله، ونجده من جذوره، بأن نجتمع المسلمين كافة على مذهب واحد يستخلص من مجموعة هذه المذاهب على ضوء القرآن والحديث، ولكن هذا الرأي لم يكد يظهر حتى اختفى دون أن يثير وراه جدلاً ولا بحثاً، ودون أن يترك بعده صوتاً لناديه عليه أو شامت به ؛ وها هو ذا اليوم يظهر ثانية على لسان سماحة العلامة الزنجاني - ومن التجف كذلك -، فإذا هو يلقي هذه المرة في مصر وفي ديار الشام غير ما لقي أول مرة، وإذا هو موضوع بحث وعناية من العلماء ورجال الفكر وأولى الشأن الجليل في القطرين الشقيين . وبيننا تفكر في إدلاء دلونا بين الآراء في الموضوع وإذا الرسالة، الرفيعة تطلع علينا فنستقبلها بالهمة الروحية التي نستقبلها بها في كل مرة، ونقف - أثناء سبرها - على مقال جليل للأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعدي في الموضوع نفسه وبعنوان : «الوحدة الاسلامية» وللأستاذ حرمة في النفس حملتنا على أن نجتمع الفكر إلى مقالته، فإذا هو يقول فيه ما كنا نحاول أن نقول في الموضوع قبل ذلك، وها تقدم إلى الرسالة، الغرام بهذه الكلمة العاجلة تأييداً لرأي الأستاذ الصعدي الذي تفرد به بين من عرضوا لهذا المشروع، بشيء من القول :

في الحق - ياسيدي الأستاذ - أن محاولة توحيد المسلمين عن هذا الطريق الذي يقولون، هي - شهد الله - عامل جديد على توسيع شقة الخلاف بينهم، وتهديد هذا الكيان الحاضر - على هزاله - بالاضطراب فالاضمحلال . ليس هذا أو أن التلبس والابهام ونحن نبحت أمراً حيويًا له خطره . وله عواقبه الجلية وتناجيه المرموقة، فلنقل - إذن - بصراحة : إن خلاف